الفصلُ الثاني

دورُ الشعوبِ العربية والإسلامية والدولية

يتباينُ دورُ الشعوب تجاه قضية فلسطين تباينًا عظيمًا، فهناك شعوبٌ يعلو دورها ويشتدّ إلى درجة ممارسة الجهاد المسلح في مواجهة الاحتلال الصهيوني، بينما يضعف هذا الدّور ويتراجع حتى يصل إلى مجرد المتابعة والوقوف موقفَ المتفرج على ما يحدثُ دون تقديم أي لونٍ من المعاونة، كما ينتكسُ الدور عند بعض الشعوب فيصبح معاديًا للحق العربي والإسلامي، ومُتعاطفًا مع الصهيونية إلى درجة الدّعم.

الشعوبُ العربية:

وهي الشعوبُ التي تمثل القلب النابض بالنسبة لقضية فلسطين، وعلى قدر حركتها وقوة هذه الحركة؛ يحدثُ التقدّم نحو أمل التحرير، وتتأثر حركة تلك الشعوب بعواملَ عدّة، وفي مقدمةِ هذه العوامل:

١ـ دور الإعلام: وهو يمثّل التوجّهات الحكومية.

٢ـ دور التعليم: وهو أيضًا يمثّل التوجّهات الحكومية.

٣ـ وجود حركة شعبية مناصرة للحقّ الفلسطيني.

٤ـ وجود حركةٍ إسلامية واعية.

ولو نظرنا على خارطة العالم العربي لاسْتبان لنا أنّ كافة الشعوب العربية كان لها دورٌ إيجابي بقدر ما تمتلكُ مِن هذه الوسائل الأربعة، وبقدر قوة هذه الوسائل في مناصرة القضية الفلسطينية.

جهادُ الشعب المصري

فهو الشعبُ الأوّل من حيث العطاء لقضية فلسطين، وهو الشعب الذي ناصرَ الحقّ ووقف معه على مدى القرن الماضي، ولا يزال مقدِّمًا الدّعم الثقافي والمالي والمادي والقتالي من أجل تحرير فلسطين، ولقد امتلكَ الشعب المصري مقوماتِ الصمود الأربعة في هذه القضية:

الإعلامُ المصري:

كان وما زالَ الإعلام المصري في عمومه مناصرًا ومؤيدًا للحقّ الفلسطيني وكاشفًا وفاضحًا للمؤامرة العالمية الصهيونية الأمريكية، ومبينًا الأبعادَ التاريخية والجغرافية والعسكرية لتلك المؤامرة.

ويلعب الإعلامُ دورًا في تحريك الشارع العام المصري لمناصرة الحقّ الفلسطيني العربي الإسلامي بما لا يتحقق لأي وسيلة أخرى على الإطلاق.

ومِن خلال ما تقدّمه شاشات التلفاز المصري من متابعة يومية للأحداث بقدر ما نرى ذلك كحركةٍ شعبيّة عامة وقوةٍ دافعة تسري في عروق المواطنين، فإذا هدأت حركة الإعلام تبعًا لتوجّهات سياسية؛ فسوف نلاحظ أنّ ذلك ينعكسُ مباشرةً على الحركة الشعبية بالهدوء والتراخي، فإذا وصلت حركة الإعلام إلى الصمت، وأُغلق ملفّ القضية فلنْ تجدَ في الشارع المصري ما يذكّر الناس بفلسطين.

وتتأثّر بالحركة الإعلاميّة الغلابة كلّ العوامل الأخرى في حركتها، حتى الحركات الإسلاميّة أو القومية أو حركة التعليم، يزدادُ نشاطها مع زيادة النشاط الإعلامي، ويتواضع الأداءُ مع هبوط الحركة الإعلامية. والسلبية الأساسية في

الإعلام الرسمي هو تقيّده بوجهة النظر الحكومية ورؤيتها للقضية الفلسطينية مع أنّ هذه الرؤية قد رضيتْ وسلمت بأحقيّة الصهاينة أن يكون لهم دولةٌ على جزءٍ من التراب الفلسطيني المغتصَب، وهو ما يتعارض مع الثوابت التاريخية والجغرافية والقضائية والشرعية.

والنصيحةُ التي تنفعنا هنا، هي ضرورة أن يكونَ للحركة الشعبية المصرية وسائل إعلامية خاصة بها إذا أرادت الإبقاء على قضية فلسطين حيّة وحاضرة، نحنُ نحتاج إلى وسائلَ إعلامية تؤمن بقضية الجهاد وفرضية استمراره حتى تتحرّر فلسطين كلها، وتعود عربية إسلامية كما كانت، ولا تتوانى حركتها الإعلامية يومًا واحدًا ولا تضعف حتى يتحقّق هذا الحلم. ووجودُ هذه الوسيلة الإعلامية المهمّة التي تصل إلى كلّ بيت مصري وعربي وإسلامي لا يقلّ أهميّة عن المجهودات الأخرى اللازمة لتحقيق النصر.

التعليمُ المصري:

وفيما يتعلّق بمناهج التعليم في مصر، فيمكننا القول إنها تغيرت كثيرًا مِن مرحلةٍ تاريخية إلى أخرى.

فأنا أذكُر عندما كنّا في المرحلة الابتدائية في الخمسينيات من القرن الماضي كان نشيدُنا في الصباح قبل الدراسة هو أنشودتنا المحبوبة..

الله أكبر فوق كيد المعتدي.. والله للمظلوم خير مؤيد..

أنا بالسلاح وباليقين سأفتدي.. الله الله أكبر.. الله فوق المعتدي.

هكذا كنّا نبدأ في الصباح، فإذا دخلنا الفصولَ الدراسية كان أستاذنا يعلّمنا الكثيرَ حول فلسطين، وتاريخَ الصراع على أرضها، وعلى حوائط المدرسة وفصولها كانت خريطةُ فلسطين معنْوَنة باسم «فلسطين الجريحة».

وحفظنا ونحنُ صغار في المدرسة قول الشاعر:

فلسطين الجريحة كنت هديًا رآه أخو الهوى صيدًا ثمينًا

وممّا حفظناه في المدارس المصرية كذلك حول «أخو الهوى» (وهو بلفور وزير خارجية بريطانيا الدولة التي كانت تحتلّ فلسطين، وسلّمتها للعصابات الصهيونية) حفظنا «وعد بلفور هو وعدُ مَن لا يملك لمَن لا يستحق».

فبريطانيا لا تملكُ فلسطين حتى تعدَ الصهاينة الذين لا يستحقون بجزءٍ من أرض فلسطين ليقيموا دولتَهم عليه. وعندما التحقتُ بالجامعة في عام ١٩٧٠ درستُ في السنة الأولى كتابًا كان عنوانه: «الصهيونية العالمية وإسرائيل» وكان مقررًا على كلّ طلاب الكلية بكافة تخصّصاتهم، ويعقد فيه امتحانٌ، وفيه نجاحٌ ورسوب مثل كلّ المواد الدراسية الأخرى، وبقي الحال كذلك حتى حرب أكتوبر المجيدة، ثمّ حدث انكسارٌ واضح في أداء التعليم المصري تجاه قضية فلسطين بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد بين السادات والصهاينة، وفرّغت مناهجُ التعليم من كلّ ما يدفع الأمة إلى تحريرها من أيدي الغاصبين، وجنَيْنا هذا حصادًا مرًّا في شبابنا حتى إذا كانت فترةُ التسعينيات أصبح طلاب الجامعة لا يكادون يفقهون شيئًا عن قضية فلسطين أهمّ قضايا العرب والمسلمين والعالم أجمع، وعندما كنت أتحسّس ذلك في طلابي بالجامعة أجدُ النتيجة مؤلمة ومبكية لما آلت إليه مناهجنا الدراسيّة مِن تراجع وضعف فيما يتعلّق بقضية فلسطين.

والنصيحة هنا لكلّ القوى المشاركة في العملية التعليمية أن تبادر إلى سدّ هذه الثغرة بكلّ ما تملكُ مِن الإمكانيات، وأن تؤلف كتب حول فلسطين تناسب كلّ مرحلةٍ تعليمية من الرّوضة وحتى الجامعة، وتقرر على الطلاب كمقرّرٍ كامل يمتحنون فيه لكي تبقى فلسطين حيَّةً في ذاكرة الأجيال القادمة.

الحركةُ القومية المصرية:

وفيما يتعلّق بالحركة القومية العامة، فإنّ مصر قد امتلكت هذه الحركة المناصرة للحقّ العربي الإسلامي في فلسطين، ولم تجتمع الأمة المصرية على قضيةٍ عامّة بقدر ما اجتمعت كلمتُها على قضية فلسطين، بل إن قطاعات شعبيّة مصرية كثيرة تتنافسُ منافسةً شديدة لتبدو كلّ واحدة أكثر تضحية وأكثرَ ولاءً لفلسطين. فالكلُّ يُعلي صوته بمعاداة الصهيونية، والرغبة في القضاء عليها بوصفها سرطانًا في جسدِ الأمة العربية، والكلُّ يجمع التبرعات لفلسطين، والكلُّ يرفع العلم الفلسطيني، ويرتدي الكوفية الفلسطينية إظهارًا للمناصرة، والوقوف إلى جانب فلسطين.

ويستوي في ذلك كافّة التوجّهات السياسية اليمينية أو اليسارية أو الوسطية أو الإسلامية بكلّ ألوانها وتوجّهاتها.

ومع أنّ هناك قلةً قليلة نسبيًّا مِن مدّعي السلام الخادع ومَن يسيرون في ركْب الاستسلام، ولكنّ هذه القلّة لا يكاد يكون لها أثرٌ ملموس في الحركة القومية العامّة في الشارع المصري أو المحافل الشعبية المصرية.

إنّ التفاف الشعب المصري بكلّ طوائفه حول قضية فلسطين يدلّ على وجود بذرةِ الخير في قلب الأمّة المصرية، وعلينا جميعًا أن نسارع بريّ هذه البذرة الكامنة

حتى تنبتَ وتنمو وتصبح شجرةً قويّة باسقة تستعصي على القطع أو الإنهاء، ولتبقى أمّتنا المصرية مصدرًا للعطاء الدائم على درب الجهاد حتى يتحقّق أملُ النصر والتحرير.

والنصيحة هنا لكلّ قطاعات الأمّة ومنظماتها الشعبية أن تحافظ على وحدتها وتمحْورها حولَ قضية فلسطين بوصفها مدْخلًا مناسبًا لمزيدٍ من التقارب والتصالح والتآلفِ حول قضايا قوميّة أخرى تلي قضيةَ فلسطين في الأهمية، وتعتبر وسيلةَ مساعدةٍ للنجاح في عملية التحرير.

ويفرضُ علينا الظرفُ التاريخي أن نكونَ عادلين في تقييم جهودنا وجهود الآخرين، وليبادرَ كلّ فريق بتثْمين واحترام جهودِ غيره من القطاعات الأخرى دون غمطٍ أو تصغير أو احتقار، ولنعلم جميعًا.. أنّ ما يجري من صراع على أرض فلسطين مثلُه كمثل حريقٍ كبير شبّ في بيت الجيران، ويجب علينا أن نقدّم الشكر لكلّ مَن سكب الماء على هذا الحريق، حتى ولو كان قدرَ كوبٍ من الماء، ما دام هذا هو المقدور والمسْتَطاع مِن فاعله.

وإن كان لنا مِن جهدٍ ليكنْ في معاونة الآخرين على تطوير أدائهم، وتنمية قدراتهم لتكون أكثرَ فاعلية وتأثيرًا، دونما تجريح أو تسفيهٍ أو تصغير لأي جهدٍ يُبذل في طريق التحرير.

الحركةُ الإسلامية المصرية:

يدلّ استقراء الواقع المصري المعاصر أنّ دورَ الحركة الإسلامية الشعبية فيما يتعلّق بالقضية الفلسطينية؛ كان يمثلُ القاطرةَ والمحرك الأساس، والقوة الدافعة بما تملكُه هذه الحركة مِن مقوّمات التأثير في المواطن المصري العربي الإسلامي.

فالمصريون أمّة متدينةٌ بطبيعتها، ومفتاحُ شخصية المواطن المصري لا يزال- بفضل الله- هو الدينَ والمسجد والمنبر والقرآن والسنة، وتقديم أي مسألة أو قضية للشعب مدعومة بأصولها الدينية القرآنية والنبوية يجعل لها عظيم الأثر في نفوس السامعين، ومِن هنا كان مصدر التأثير الواضح للحركة الإسلامية فيما يتعلق بقضية فلسطين.

والحركة الإسلامية المصرية- على اختلاف أطيافها- تؤمن بفرضية الجهاد على كلّ مسلم من أجل تحرير فلسطين.. كلّ فلسطين، وتعتبر أنّ الجهاد المسلّح هو الوسيلة الأساسية المناسبة لعملية التحرير بوصفها معركةً حربية قتالية في المقام الأول، ولا أعلم أنّ هناك في مصر مِن أعضاء الحركة الإسلامية مَن يشذّ على هذا الرأي، أو يخالفه.

وقد تتفاوتُ فيما بعد ذلك الجماعاتُ الإسلامية من فريقٍ لآخر من حيث الأداء والعطاء، كما يتفاوت أداءُ الأفراد المنتمين للحركة الواحدة في القيام بواجبِ الجهاد الإسلامي المقدس من فردٍ إلى آخر.

هناك إسلاميون قدّموا دعماً أدبيًّا وثقافيًّا من فوقِ منابرهم، ومن خلال حلقات الدروس المسجدية والمحاضرات العامة، ومن خلال شرائط الكاسيت والفيديو، ومن خلال مؤلَّفات وكتب، وكلها جهودٌ قيّمة ومعتبَرة في باب الجهاد، ومِن وسائله المهمّة.

وهناك مَن أضافوا إلى ذلك القدرةَ على حشد الناس في مظاهرات تُعلي ألوية الجهاد، وتنادي بالثأر من المعتدين، وتحضّ الحكومات والجيوش على الحركة.

وهناك مِن الإسلاميّين مَن قام بجمع المال والمؤن وكافة اللوازم الإغاثية الأخرى، وحملها إلى حيث أرض المعركة، ومَن يحتاجون إليها مِن المحاصرين في أرض فلسطين.

وهناك مِن الإسلاميّين مَن حمل السلاح، وقاتلَ على الأرض، وضرب أروعَ الأمثلة في الجهاد والاستشهاد، وارتقى بروحه وأدائه الجهادي بما يتناسبُ مع حجم المعاناة التي تعانيها فلسطين أرضًا وشعبًا.

الشعبُ الأردني

يأتي الشعبُ الأردني في الدّرجة الثانية من حيث الأداء الجيّد في ساحة الجهاد من أجل تحرير فلسطين.

ونظرًا لقلّة المعلومات المتوفّرة عن دور الإعلام والتعليم الأردني في تلك القضية؛ فإنّني لا أستطيع مقارنةَ ذلك بالدور المصري، ولكن من حيث الحركةِ القومية والحركة الإسلامية فإنّ الشواهد تقول إنّ الأردن امتلك حركةً قومية قويةً ومعبّرة عن ثقافة شعبية عامّة مؤيدة للحقّ الفلسطيني العربي الإسلامي ومناصرة له على مدارِ التاريخ. كما أنّ الرابطة العرقية بين أهل الأردن وأهل فلسطين جعلتهم شعبًا واحدًا، وإنْ حاولت الأنظمة تفريقَهم.

الشعبُ اللّبناني

بالرغم من التركيبةِ الطائفية المعقّدة للشعب اللبناني، فإنّ اللّبنانيّين كانت لهم مشاركةٌ ملموسة في قضية تحرير فلسطين.

ولقد تأثّرت الأمة اللّبنانية بالاحتلال الصهيوني لفلسطين تأثرًا عميقًا يتعلق بأمْنها العسكري، وتعرّضت المدنُ والقرى اللبنانية للغارات والمتفجرات طيلةَ فترات الصراع، كما كان اجتياح الصهاينة جنوب لبنان وبلوغ بيروت أكبرَ مأساةٍ يتعرّض لها شعبٌ عربي بعد فلسطين.

وحتى نبقى مع عناصر التقييم الأساسية الأربعة التي اعتمدناها كميزانٍ للحكم، وهي: الإعلام والتعليم والحركة القومية، والحركة الإسلامية؛ فإنّ لبنانَ لا يمكن قياس أدائه كأمّة واحدة لما له مِن تركيبة عرقية خاصة لدرجة أنّ بعضَ اللبنانيّين موالون للصهيونية مثل الكتائبيّين الذين انحازوا للجيشِ الصهيوني في مقاتلة المقاومة الإسلامية والفلسطينية على أرض لبنان.

والذي يمكن تقييمُه هنا هو القسمُ المسلم من لبنان عامّة، والحركة الإسلامية خاصّة، فإذا كان الأمرُ كذلك فإنّ الحركة الإسلامية في لبنان تعتبر حركةً متميّزة من حيثُ امتلاكها للعناصر الأربعة.

فلدَى الحركةِ الإسلامية اللّبنانية قدرة إعلامية معتبَرة تحافظ على ثوابت القضية الفلسطينية على الساحة القومية، وتعادي الاحتلال الصهيوني، وتكشفُ زيفَ ادعاءاته التاريخية.

كما أنّ الحركة الإسلامية اللبنانية تمتلك قدرًا ملموسًا من المناهج التعليمية المتعلّقة بالقضية الفلسطينينة، وتشارك في ذلك المدارس العربية الخاصة ودور النشر اللّبنانية ذات الصيت العالي في مجال النشر والتوزيع.

كما أنّ الشعب اللّبناني قادرٌ على الاحتشاد خلف قياداته، وله حضورٌ في المحافل والمظاهرات العامة بما يعبر دائمًا عن انتماءٍ عربي أصيل بين أبناء لبنان.

وعلى الجانب العسكري، فتتميز لبنان بوجودِ حركة قتالية فعالة تمثّلت في الكتائبِ الفلسطينية، ثمّ تبلورتْ في جيش حزب الله المرابط في الجنوب، والذي استطاعَ أن يثبتَ جدوى العمل العسكري في إجلاء الصهاينة عن الأرض التي احْتلوها، وأصبح حزبُ الله مثالًا للجهاد المسلّح من حيث التنظيم والتدريب والتسليح.

الشعبُ السّوري

كان الشعبُ السوري في الثلاثينيات والأربعينيات امتدادًا طبيعيًّا للشعوب العربية في فلسطين ولبنان والأردن ومصر، وكانت الحركةُ بين هذه الشعوب سهلةً ويوميّة، والتنسيقُ بين قادتها الشعبيّين والرسميين قائمٌ وفعّالٌ.

غير أنّ الحال تغيّر كثيرًا من الخمسينيات وحتى اليوم، وبخمود الحركة الإسلامية السورية ومطاردتها خمدت الحركةُ الشعبية عامّة، فلم يعدْ هناك نشاطٌ يُذكر فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية إعلاميًّا أو تعليميًّا أو قوميًّا أو إسلاميًّا، وطاقة النور الوحيدة التي أذكرها على أرض سوريا هي وجود بعض قادة الجهاد الفلسطيني ضيوفًا على سوريا، كما أنّ التيارَ القومي العربي السوري له جهدٌ مشكور في الكفاح العربي في مواجهة المشروع الصهيوني وكشف خطورته والعمل على إنهائه وتصفية وجوده في العالم العربي.

ولا تزال الحالةُ هكذا في الأراضي السورية من الناحية الشعبية حتى يأذن الله بيومٍ نسمعُ فيه صوتَ الشعب السوري الشقيق.

الشعوبُ العربيّة الأخرى

بعدما استعرضْنا الموقفَ الشعبي تجاه القضية الفلسطينية فيما يسمّى دول

الطّوق، وهي مصر والأردن ولبنان وسوريا بالإضافة إلى أرض الرباط فلسطين، فإنّ كافةَ الشعوب العربية الأخرى لم يتعدَّ دورها المعاوناتِ المالية كصدقاتٍ واجبة والمجاملات الكلاميّة التي تثور في أوقات السخونة لشهور، ثمّ تروحُ في غيبوبةٍ ونسيان لسنين طويلة.

الشعوبُ الإسلامية

تدلّ الدراسةُ الواقعيّة لحركة الشعوب الإسلامية طيلة القرن الماضي أنّ قضية فلسطين لم تكنْ لها أولوية تذكرْ في حياة تلك الشعوب، وأنّ هذه الشعوب غارقةٌ في مشكلاتها الخاصة، ولذلك بقيتْ قضية فلسطين محرومةً مِن عمقها الإسلامي. وليس هناك ما يمكن اعتبارُه وعيًا حقيقيًّا بفلسطين أو قضيتها على المستوى الشعبي خارجَ حدود الوطن العربي إلّا عند شريحة ضيقة من المثقفين والقادة.

شعوبُ العالم وفلسطين

كان لحركة الهجرة الفلسطينية الاضطرارية نحو الغرب الأوروبي والولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية أثرٌ بالغ في وجود مراكز بحثية ومنظمات إغاثية تعملُ لفلسطين وسط الشعوب الأوروبية والأمريكية.

وتعتبرُ هذه الحركة المنظّماتيّة الفلسطينية هي المصدر الوحيد الذي تدري مِن خلاله تلكَ الشعوب ببعض المعلومات عن القضية الفلسطينية، ولكن تلك المعرفةُ لم تتحوّل أبدًا إلى تيارٍ شعبي يمكن وزنه، والاعتماد عليه في مواجهة الدّعاية الصهيونية الكاسحة وسط هذه الشعوب الأوروبية والأمريكية، ولذلك فالشعوبُ الأوروبية والأمريكية على الإجمال ما بين غالبية مؤيّدة لإسرائيل، وتعيّنها بالمال والمتطوعين، وقلّة قليلة لديها معلومات عن فلسطين، وأفرادٌ يعدّون على الأصابع

متعاطفون مع الشعب الفلسطيني على أنه يعاني محنةً إنسانية.

نصائحُ للشعوب وحركتها مِن أجل فلسطين:

على الشعوب العربية والإسلامية- أفرادًا، وقيادات شعبية، وجماعات وتنظيمات- إنْ أرادت أن تخطو خطواتٍ جادةً نحو تحرير فلسطين أنْ تؤهل نفسَها لتلك المهمّة المقدسة من خلال:

١ـ امتلاك وسائل إعلاميّة مناسبة للعصر، وأقلّها قناة تليفزيونية فضائية تمكّن كلّ حركة شعبية من الاتصال بالشعب، والاتصال بأفرادها اتصالًا حقيقيًّا ويوميًّا، بالإضافة إلى جرائدَ يومية ومحطات إذاعية.

٢ـ امتلاك وسائل تعليم كافيةٍ لاستيعاب المؤمنين بعدالة قضية التحرير وتأهيلهم دراسيًّا وعلميًّا للقيام بهذه المهمة، بدايةً من دور الحضانة وحتى الجامعة، بالإضافة إلى عددٍ من مراكز البحوث المتخصصة في الشأن الفلسطيني.

٣ـ إبراز قيادات كافية للأخذِ بيدِ الأمة، وإدارة حركتها الجهادية من أجل فلسطين، وتدريب تلك القيادات، والوقوف خلفها؛ حتى تكون مصابيحَ هداية للشعوب الحائرة.

٤ـ علينا أن نتقنَ التربية الجهادية، وأن نوجّه البنادق كلها ناحية العدو الصهيوني بوصفه العدوَّ المشترك للشعوب والحكومات، وأن نتحاشى تمامًا الاقتتالَ الداخلي فيما بيننا.